تقديم

للدكتور عادل حسن غنيم

رئيس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

يسرنى أن أقدم إلى القارئ العربى هذا البحث الهام الذى ألفه الصديق "محمد غالب بركات" أحد أعضاء الجمعية، ومن أصحاب النشاط الثقافى العام خاصة فى مجال الصحة النفسية والإرشاد النفسى.

وكما يتضح من سيرته الذاتية، فقد سبق أن قام بتحقيق عدد من المخطوطات الهامة، كما أنه نموذج طيب للمزج بين العلوم والثقافات المختلفة والاستفادة من كافة العلوم النظرية المتصلة بتخصصه، وبين الدراسة العلمية التى تخدم مجالاتها، أو بين الصحة النفسية والعلوم المساعدة لها، مما جعله يرتاد موضوعات جديدة ويهتم بالدراسات المقارنة.

وهو يعالج فى هذا البحث قضية قلق الموت عند الفلسطينيين، وهى دراسة نفسية تاريخية حاول بها أن يمزج بين التجربة الفلسطينية والتوجهات النفسية لدى الفلسطينيين فى صراعهم ضد الاستعمار والصهيونية العالمية، حيث عالج أولاً موضوعات تاريخية هامة مثل أهمية مدينة القدس والتأكيد على عروبتها والدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين، ومثل أهداف الصهاينة وهجراتهم وحفائرهم ومزاعمهم وجهودهم فى مجال الاستيطان، بهدف تهويد القدس وطمس المعالم العربية وتجريد فلسطين من هويتها الإسلامية، مستخدمين فى ذلك كل وسائل الدمار والترويع والمذابح والحرب النفسية، وهو ما دفع آلافًا من الفلسطينيين إلى الرحيل من الأرض المقدسة تاركين أموالهم وأراضيهم وممتلكاتهم.

ونتيجة لهذا الترويع، وهذه البربرية الصهيونية والعنصرية المتابعة والتى تأخذ أشكالاً ونماذج شتى تسببت فى النهاية فى إيجاد حالة نفسية قلقة لدى الفلسطينيين بشكل عام وأهل القدس بشكل خاص.

وقد حاول الباحث دراسة هذه الحالة التى بلورها فيما أسماه "قلق الموت فى ظل الإرهاب الصهيونى" محللاً ومفسراً لدوافعها شارحًا لأهداف العمل الفدائى موضحًا آثار ذلك على المشروع الصهيونى وعلى مؤسساته الاقتصادية والعسكرية، موضحًا أهمية الجهاد بالنفس من أجل الدفاع عن الوطن وإعزاز دين الله، وأثر ذلك فى نزع الأمن من نفوس الصهاينة وإدخال الرعب فى قلوبهم والتأثير السيئ على الحالة المعنوية والنفسية للمجتمع الإسرائيلى، مما سيؤثر بطبيعة الحال على مستقبل الدولة اليهودية.

تحية تقدير للأخ محمد غالب بركات على هذا الجهد الطيب، وأرجو أن يتابع نشاطه العلمى والثقافى فى مجال الصحة النفسية مازجًا بين العلوم النظرية المختلفة مستفيداً من العلوم المساعدة فى خدمة أبحاثه.

والله ولى التوفيق.

دكتور/ عادل حسن غنيم

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

كلية الآداب جامعة عين شمس

obeikandl.com

مقدمة:

الحرب هى أم الأشياء كلها، هى ملكة جميع الأشياء؛ إنها تجعل من البعض عبيدا، ومن البعض الآخر أحراراً، وذلك حينما يتواجه طرفان يريد كل منهما السيطرة على الآخر مبقيًا على المغلوب، لأنه بحاجة إليه، ولكونه شرطًا للتعبير عن قدرته. أما حيث لا توجد مجابهة حيثُ يُفنى طرف الطرف الآخر فليس ثمة حرب، بل هناك مجزرة.

وتكاد الحروب تغطى كامل مشهد التاريخ العربى، وهى فى غالبيتها حروب ذات طبيعة واحدة. فهى حروب احتلال وغزو وتسلط وهيمنة من جهة القوى المعتدية على مختلف الأقطار العربية، وهى ذاتها حروب رد عدوان واستقلال وتحرير من جهة الجماهير العربية وقواها المواجهة.

وتتعرض القدس عاصمة الدولة الفلسطينية لحرب إبادة منظمة من الإسرائيليين فى سلسلة من الاعتداءات على الأرض والنفس تمثلت فى نكبة ١٩٤٨، ثم نكسة ١٩٦٧ وحرب ١٩٨٢، ثم الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ وبعدها انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠. فالتاريخ لم يسجل من قبل قضية تجمعت فيها الأحقاد العالمية، والمتناقضات الدولية، مثلما سجل فى قضية فلسطين!!

فالصهيونية كانت تحاول استغلال كل حركة تمرُّ، لإنشاء الدولة اليهودية. وكان لها ذلك فى عام ١٩٤٨، أى بعد حوالى نصف قرن من المؤتمر الصهيونى الأول، كان ذلك عبر القوة العسكرية للعصابات الصهيونية مثل: الشتيرن[1]،

---

(١) منظمة عسكرية صهيونية أسسها أبراهام شتيرن، وكانت تُسمَّى «ليحى» ثم سُمِّيت باسم مؤسسها بعد مقتله.

الهاجانا[1]، الأرجون[2] وغيرها، وبدعم غير محدود من حكومة الانتداب

(١) الهاجاناه" كلمة عبرية تعنى "الدفاع"، وهى منظمة عسكرية صهيونية استيطانية، أُسِّست فى القدس عام ١٩٢٠ لتحل محل منظمة الحارس. وجاء تشكيلها ثمرة نقاشات طويلة بين قيادة التجمع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين، فكان "جابوتنسكى" صاحب فكرة تأسيس مجموعات عسكرية يهودية علنية تتعاون مع سلطات الانتداب البريطانى، بينما كان قادة اتحاد العمل يفضلون خلق قوة مسلحة غير رسمية مستقلة تمامًا عن السلطات البريطانية وسرية بطبيعة الحال. وقد قُبل فى النهاية اقتراح "إلياهو جولب" بإنشاء منظمة عسكرية سرية تحت اسم "هاجاناه وعفودا" أى "الدفاع والعمل" ثم حُذفت كلمة العمل فيما بعد. وفى عام ١٩٢٩، شاركت الهاجاناه فى قمع انتفاضة العرب الفلسطينيين، وقامت بالهجوم على المساكن والممتلكات العربية ونظَّمت المسيرات لاستفزاز المواطنين العرب وإرهابهم. كما ساهمت فى عمليات الاستيطان، وخصوصًا بابتداع أسلوب "السور والبرج" لبناء المستوطنات الصهيونية فى يوم واحد. وبالإضافة إلى ذلك، قامت الهاجاناه منذ تأسيسها بحماية المستعمرات الصهيونية وحراستها.

(٢) الأرجون أو "إتسل" اختصار للعبارة العبرية "إرجون تسفاى ليومى بارتس إسرائيل" أى "المنظمة العسكرية القومية فى أرض إسرائيل" وتُعرف أيضًا باسم "الإرجون". وهى منظمة عسكرية صهيونية تأسَّست فى فلسطين عام ١٩٣١م من اتحاد أعضاء "الهاجاناه" الذين انشقوا على المنظمة الأم وجماعة مسلحة من "بيتار"، وكان من أبرز مؤسسيها: "روبرت بيتكر"، الذى كان أول رئيس للمنظمة "وأبراهام يتهومى سيلبر" و"موشى روزنبرج" و"دافيد رازئيل" و"يعقوب ميردور". وقد بُنيت المنظمة على أفكار "فلاديمير جابوتنسكى" عن ضرورة القوة اليهودية المسلحة لإقامة الدولة، وعن حق كل يهودى فى دخول فلسطين. وكان شعار المنظمة عبارة عن يد تمسك بندقية وقد كُتب تحتها "هكذا فقط". وبعد قيام إسرائيل، أُدمجت المنظمة فى جيش الدفاع الإسرائيلى، بعد مقاومة من جانبها لهذا الدمج، ويُعَد حزب "حيروت" امتدادًا لأيديولوجيا المنظمة الإرهابية. وقد كرَّم الرئيس الإسرائيلى قيادات إتسل فى نوفمبر ١٩٦٨ تقديرًا لدورهم القيادى فى تأسيس دولة إسرائيل. (راجع: المسيرى، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج٧، ص١٠٨).

البريطانى على فلسطين (١٩٢٠ - ١٩٤٨)، وقد أدت المجازر الصهيونية إبان فترة الانتداب البريطانى على فلسطين مروراً بعام ١٩٤٨ وما تلاه من مجازر على تهجير أكثر من نصف مجموع الشعب الفلسطينى، وبذلك تغير التوزيع السكانى الفلسطينى، وبعد عام ١٩٦٧ واحتلال الجيش الإسرائيلى، للضفة والقطاع اختلفت الخارطة الديموغرافية للشعب الفلسطينى نتيجة عمليات الترانسفير الصهيونية.

إن القدس بلدة عربية إسلامية، لا نزاع فى ذلك إلا نزاعًا طريقُهُ "عطاء من لا يملك لمن لا يستحق"، ولهذا العطاء قصته المخزية التى سطرها "جون فوستر دلاس"[١] وأودعها كتابه: "حرب أم سلام" عام ١٩٤٨ وهو عام الاعتراف بإسرائيل، فقد رمانا بالخزى ونال من كرامة كل عربى ومسلم فقال: "وقد سرت الإشاعات بأن جيوشًا عربية كبيرة ستزحف إلى فلسطين، وتغمرها بجنود لا حصر لها، ولكن ذلك لم يحدث لسببين: الأول: أن العرب لم يكن لديهم الشجاعة الكافية للقيام بهذه المغامرة. والثانى: أن اليهود كانوا يكونون عصبة متحدة ومنظمة قوية الشكيمة. ولم يحدث ذلك أيضًا لأن الأمم المتحدة كانت قد منحت تأييدها الأدبى لفكرة إنشاء الدولة اليهودية الجديدة"[٢].

فالشعب الفلسطينى بعامة جيلاً بعد جيل يتعرض يوميًا للإبادة، وسلب الإرادة، ويحاصره الموت من كل مكان، ومن الطبيعى فى هذا المكان غير الآمن أن يفكر الإنسان فى الموت أكثر من تفكيره فى الحياة، ولكن الموت عند المقدسيين ليس ذلك المجهول الذى يبث الخوف والرهبة فى النفوس، بل هو قضاء الله وقدره فى أن يعيش الإنسان عمرًا زائلاً فى الدنيا، ثم يعيش عمراً خالداً فى الآخرة، وقد تأكدت هذه الحقيقة فى معارك ١٩٤٨م وما بعدها حين خرجت طلائع مؤمنة من بلاد شتى تتحرق شوقًا إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله دفاعًا عن أولى

---

(١) مندوب الولايات المتحدة حين ذاك.

(٢) جون دلاس، حرب أم سلام، القاهرة: العالمية للطبع والنشر.

القبلتين وثالث الحرمين ومسرى النبى ﷺ معتقدين فى قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥)﴾[1].

وفى قول النبى ﷺ: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - عن النبى ﷺ قال: "انتدب الله لمن خرج فى سبيله لا يخرجه إلا إيمان بى وتصديق برسلى أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة أو أدخله الجنة، ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية، ولوددت أنى أقتل فى سبيل الله، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل"[2].

فمن يقاتل وهو يشعر بأن وجوده فى أرضه يسلب منه وينتزع، إنما يتغلغل بداخله شعور بعقيدته القتالية النابعة من إحساسه بعدالة القضية، فهو لن يخشى الموت، ولن يهتم لحياته فداء حرمة مقدساته، أرضه، حضارته، هويته.

إن قيام شعب اغتصب استقلاله عنوة بحرب مسلحة ضد الدولة المحتلة لن يكون بأى حال عملاً عدوانيًا، بل إنها حرب عادلة نعلنها لندفع الظلم ضمانا للحق والعدل، يُرغَم العدو على السلم وعدم الإيذاء وحب التسلط.

فهل دفاع الفلسطينى عن مقدساته ووجوده إرهاب، وما يمارسه الإسرائيلى من مذابح ومجازر يومية ليس إلا دفاعا عن النفس؟! إن الغزو الصهيونى الذى استهدف اجتثاث شعب من أرضه ليس إلا تمهيداً لفرض الهيمنة الصهيونية على الأراضى العربية، وتشتيتًا للعرب والسعى إلى إفقاد حسهم النضالى. ولكننا نناضل لعدالة ما من أجله نهب حياتنا .. لاستعادة الأرض المغتصبة .. لاسترجاع الكرامة والهوية والذاتية.

لقد كان للشعب الفلسطينى - دائمًا - مواقفه التى دافع فيها عن قضاياه وعن وطنه، والتى ناب فيها عن أمته العربية والإسلامية فى الكفاح البطولى ضد

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٥ .

(٢) رواه البخارى فى كتاب الإيمان برقم (٣٦)، ومسلم فى كتاب الإمارة برقم (١٨٧٦).

من اغتصبوا أرضه وجاثوا خلال دياره عابثين بكل المقدسات، معتدين على كل الحقوق، والأمانة تقتضى أن نذكر أن التحرك العربى لم يكن أبداً فى الفترة المعاصرة للقضية - أى منذ الحرب العالمية الأولى وحتى الآن - على المستوى المطلوب للدفاع عن الحقوق، ومواجهة القوى المعادية، فنحن إزاء صراع حضارى طرفاه الاستعمار الصهيونى الاستيطانى والعرب[1].

فكما أن للحياة حكمة فللموت حكمة وغاية، وتكتمل الحكمتان فى اختبار الإنسان فى حياة أخرى باقية انطلاقا من قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٢﴾[2].

فحياة الفلسطينيين بعامة والمقدسيين بخاصة مليئة بالابتلاءات، ومع ذلك فحين يصبرون تكون لهم البشرى، يقول تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥﴾[3].

وليس الصبر ضربًا من السلبية، أو استسلامًا للواقع المر، وإنما هو جهد يبذل من النفس الإنسانية، ويصحبه النهوض بالتبعات بالعزم والاجتهاد، ولا يكون الإنسان متبرمًا من مواجهة الشدائد والابتلاءات بل يكون صابراً راضيًا بقضاء الله، وهذا هو معنى الصبر الجميل فى قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ۝٥﴾[4].

ومن ثمراته أنه يضىء الطريق لصاحبه فيعرف فى الشدائد عدوه من صديقه، ومن ثمراته عند مواجهة الأعداء النصر، يقول النبى ﷺ "واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا"[5].

وإذا كانت المحن تولد المنح، وتفرز الرجولة والبطولة والتضامن، وتصهر معادن الرجال، فإننا ننتظر المنحة قريبًا بنصر وفتح قريب وعودة القدس الحبيب.

---

(١) جعفر عبد السلام (١٩٩٥). المركز القانونى الدولى لمدينة القدس. ص ١١.

(٢) سورة الملك: ٢.

(٣) سورة البقرة: ١٥٥.

(٤) سورة المعارج: ٥.

(٥) رواه أحمد فى مسنده.